گۆڤارا زانستێن مرۆڤایەتی یا زانکۆیا زاخۆ
مجلة العلوم الانسانية لجامعة زاخو
Humanities Journal of University of Zakho (HJUOZ)
Vol. 6, No. 3, pp. 794–808, Sept. -2018
hjuoz.uoz.edu.krd
p-ISSN: 2410-7557
e-ISSN: 25185128
journals.uoz.edu.krd

المدارس الحنفية بدمشق في عهد السلطان نور الدين محمود بن زنكي (549 –569هـ/ 1154– 1173م)

شوكت عارف محمد الاتروشي
قسم التاريخ– فاكولتي العلوم الانسانية – جامعة زاخو(Dr.shawkat2006@yahoo.com)

تاريخ الاستلام: 2018/07 تاريخ القبول: 2018/09 تاريخ النشر: 2018/09 https://doi.org/10.26436/2018.6.3.525

الملخص:

نالت مدينة دمشق شهرة كبيرة في القرن 6هـ/12م لا سيما في عهد السلطان نور الدين محمود بن زنكي (549– 569هـ/ 1154– 1173م) الذي إهتم بها كثيراً، وجعل منها مركزاً لحكمه لأهميتها الإستراتيجية في جهاده ضد الصليبيين، فضلاً عن كونها كانت تمثل حلقة وصل بين بغداد والقاهرة، إنطلقت منها جهوده السياسية والعسكرية لتوحيد الجبهة الإسلامية، وكان على وشك تحرير بيت المقدس من الصليبيين لولا أن المنية عاجلته.

من جهة أُخرى كان السلطان نورالدين محمود مُدركاً تمام الإدراك أن نجاح مُشروعه السياسي بحاجة الى إرساء وتعزيز الجبهة الداخلية للمسلمين من خلال دعم جهود علماء السنة للقضاء على ما يخالف الشرع الحنيف من المذاهب والافكار التي أضعفت المسلمين، وفرّقت بينهم، لذلك أولى إهتماماً ورعاية خاصة بالعلوم الدينية بمملكته، وأصبحت دمشق في عهده مركز إشعاع فكري وعقائدي، سكنها مشاهير علماء السنة، كما إنتشرت فيها العديد من المدارس السنية على إختلاف مذاهبهم .

والبحث محاولة جادة لدراسة جهود السلطان نور الدين محمود في هذا الإطار من خلال إهتمامه ببناء المدارس السنية بدمشق، لا سيما تلك التي إختصت بالمذهب الحنفي، ربما لأنه كان يُميل الى هذا المذهب دون سواه، وقد قُسم البحث الى ثلاثة مباحث رئيسية:تناول **المبحث الأول**: لمحة عن الأوضاع السياسية في عهد السلطان نور الدين محمود، وخصّص **المبحث الثاني**: للحديث عن دعم ورعاية السلطان للمذاهب السنية عموماً، والمذهب الحنفي خصوصاً.**أما المبحث الثالث**: فقد تمّ التطرق فيه لمدارس المذهب الحنفي بدمشق، وبيان مناهجها، والعلماء الذين تصّدروا التدريس فيها.

الكلمات الدالة: المدارس الحنفية، نور الدين محمود، العصر الزنكي.

1. لمحة عن الأوضاع السياسية في عهد السلطان نورالدين محمود

إحتلت مدينة دمشق[1]، مكانة هامة في التاريخ الإسلامي للدور الكبير الذي لعبته هذه المدينة سياسياً وحضارياً على مرّ التاريخ، وقد جعل منها موقعها الإستراتيجي مدينة تجارية تصل الشرق بالغرب، لذلك كثيراً ما تطلعت القوى الخارجية للسيطرة عليها، ووصفت بأنها مفتاح السيطرة على مصر، توالى عليها حكم الكثير من الأقوام، والدول قبل أن يفتتحها المسلمون عنوة بعد حصارها سنة 14هـ/ 636م، [2]، ثمّ أصبحت عاصمة للأمويين سنة 41هـ/661م ، وفي سنة 264هـ/ 877م إستقلت عن الخلافة العباسية بعد أن استولى عليها أحمد بن طولون التركي[3]، ثمّ تلا ذلك أن دخلت في حوزة الفاطميين سنة 359هـ/ 969م،[4]، ثمّ إنتقلت الى حكم السلاجقة في عهد اتسز بن آبق السلجوقي الذي إستولى على المدينة، وأعاد الخطبة للعباسيين سنة 468ه/1075م[5].

وقد إتسمت الأوضاع السياسية في دمشق، وبلاد الشام عموماً طيلة القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بالضعف وعدم الإستقرار نتيجة الصراعات والحروب في غياب السلطة المركزية، وأصبحت بلاد الشام مُقسّمة، تتنازعها عدة قوى كالسلاجقة الذين تمّكنوا من بسط نفوذهم على الأجزاء الشمالية، أما الأقسام الجنوبية، فكانت تحت الحكم الفاطمي، بينما بقيت المناطق الوسطى الداخلية تحت نفوذ الزعامات المحلية، ولعبت الأقليات والطوائف المذهبية كالباطنية الحشيشية دوراً في تفكّك البلاد، فضلاً عن نشرهم الرعب والفزع، واسهمت تلك الظروف في فسح المجال للقوى الخارجية المعادية كالصليبيين لشن حملاتهم على المدن الشامية دون مُقاومة تذكر[6].

وفي خضم تلك الظروف والتحديات الصعبة برز على المسرح السياسي أنذاك عماد الدين بن آق سنقر بن عبدالله مُؤسس الإمارة الزنكية بالموصل (521هـ–541هـ/1127–1146 م) [7]، والذي كان له دور في توحيد بلاد الشام، والجزيرة الفراتية في جبهة قوية حملت على عاتقها محاربة الصليبيين، وعلى يديه تحققت الانتصارات الباهرة ،

وتمكن من إخضاع الكثير من القلاع، والمدن المهمة ،كمدينة حلب التي دخلها سنة 522هـ/ 1128م وسط ترحيب سكانها بقدومه [8]، ومدينة حماة سنة 523هـ/ 1129م[9]، وحمص، وبعلبك[10]، ولم يبق أمامه سوى السيطرة على دمشق التي حاصرها سنة 534هـ/ 1139م إلّا أنه لم يتمكن من دخولها بسبب قلعتها الحصينة، والمقاومة التي أبداها صاحبها جمال الدين محمد بن طغتكين[11].

ولعّل من أكبر الإنتصارات التي تحقّقت في عهده هو نجاحه في السيطرة على الرها سنة 539هـ/ 1144م ، وتكمن أهمية الرها كونها أول إمارة صليبية تأسست في بلاد الجزيرة، وكان وجودها يُشّكل تهديداً لسيطرة الزنكيين لا سيما في حلب والموصل [12]، وقد عبّر ابن الأثير(ت: 630هـ/1232م) عن فرحة المسلمين آنذاك بفتح الرّها، فوصف الإنتصار بـ (فتح الفتوح) لأهميته [13].

واصل عمادالدين زنكي جهوده العسكرية ، وكانت تحدوه الرغبة في السيطرة على بلاد الشام، والجزيرة الفراتية بشكل كامل إلاّ أنه إغتيل غيلة على يد أحد مماليكه سنة 541هـ/ 1146م[14] أثناء حصاره لقلعة جعبر[15]، وبوفاته إنقسمت دولته بين ولديه سيف الدين غازي ،ومقره الموصل، ونورالدين محمود، ومقره حلب، ورغم هذا التقسيم، فان مشروع عماد الدين زنكي في ضرورة تحقيق وحدة المسلمين بقي ماثلاً في نهج وسياسة ابنه نورالدين محمود الذي إستمر حكمه ثمانية وعشرين سنة(541– 569هـ/ 1146–1173م) تمّكن خلالها من القضاء على الفتن الداخلية، فضلاً عن مواصلته الجهاد ضد الصليبيين، إذ توجه سنة 541هـ/ 1146م الى الرها بعد أن بلغه قيام الصليبيين بقيادة الأمير جوسلين دي كورتيناى بالسيطرة عليها، وتمكن من فتحها[16]، وفي السنة التالية 542هـ / 1147م دخل حصن ارتاح وطرد الصليبيين منه[17] ، وأخذ الصليبيون يحسبون له حساباً ،لا سيما وأنه لم يكن قد تقّلد السلطة عن طريق االصدفة، وإنما نتيجة خبرته العسكرية التي إكتسبها من مصاحبته لوالده .

وتوالت إنتصارات نورالدين محمود، ففي سنة 543هـ/ 1148م شنّ هجوماً على بصرى، وتمكن من طرد الصليبيين[18]، وفي السنة ذاتها حرر حصن العريمة[19]، وفي سنة 544هـ/ 1149م سار الى حصن حارم الصليبي فحّرره [20]، وكان هدفه من تلك الهجمات تدمير القلاع، والحصون الصليبية لما لها من أهمية إستراتيجية، فقد كان الصليبيون يستخدمونها لإدامة المقاومة ضد المسلمين .

كما بدأ نورالدين محمود التوجه لضم مدينة دمشق لأهميتها الاستراتيجية ،والتعبوية، وأن مواصلة الجهاد بحاجة لضم دمشق، وحلب والموصل في جبهة واحدة، ومما شجّعه على ذلك هو عدم إستقرار الأوضاع السياسية في عهد أتابكية دمشق أو ما كانت تعرف بالدولة البورية نسبة الى تاج الملوك بوري بن الأتابك طغتكين (497– 549هـ/ 1104–1154م)،[21]، فقد كان أغلب الأمراء الذين أعقبوا طغتكين ضعفاء، لم يتمكنوا من ملء الفراغ الذي تركه ، مما تسّبب في قدوم الصليبيين الى البلاد الشامية ، وكان أخر حكام الدولة البورية مجير الدين آبق قد تحالف مع مملكة بيت المقدس الصليبية ،حيث كان يدفع لها أتاوة سنوية، مما دفع بنورالدين محمود للتوجه للسيطرة على دمشق للقضاء على ذلك التحالف، وكانت له مراسلات مع أهلها الذين كانوا " يميلون اليه، لما هو عليه من العدل، والديانة، والاحسان "[22] تمكن بمساعدتهم من دخول المدينة سنة 549هـ/ 1154م من غير قتال بعد أن وعدوه بالتسليم، ويذكر أبو شامة المقدسي(ت:665هـ/ 1266م)، بهذا الصدد أن امراة دمشقية كانت على السور دلّت حبلاً فصعدوا اليه وصار على السور جماعة، ونصّبوا السلالم، وصعدت جماعة أخرى، ونصّبوا علما، وصاحوا بشعار نورالدين"[23] وعندما علم الصليبيون بذلك تراجعوا عن نجدة حليفهم مجير الدين أخر حكام الدولة البورية[24]، ويعّد ابن الاثير خير من عّبر عن خوف الصليبيين من سيطرة الزنكيين على دمشق بقوله: " كان أبغض الأشياء الى الفرنج أن يملك نورالدين محمود دمشق لأنه كان يأخذ حصونهم، ومعاقلهم، وليست له، فكيف إذا أخذها وقوى بها"[25].

كما يعود إليه الفضل في السيطرة على مصر بمساعدة قائد عسكره اسد الدين شيركوه، والغاء الخلافة الفاطمية بجهود صلاح الدين يوسف بن ايوب، وإعلان الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بالله في سنة 567هـ/ 1171م ،وأصبح متُقلداً حكم الشام ومصر والجزيرة بموجب إقرار الخليفة العباسي له سنة 568هـ/ 1172م،[26]، ومن ثمّ يتضح حجم النجاح السياسي والعسكري الذي حقّقه نورالدين محمود، وكان هدفه النهائي تحرير بقية الأراضي بما فيها بيت المقدس من الاحتلال الصليبي، إلاّ أنّ المنية حالت دون تحقيق كل تلك الأهداف سنة 569هـ/ 1173م.

ولأهمية دمشق جعل منها نور الدين محمود عاصمة لدولته، ويُعد عهده من الفترات الزاهرة في تاريخ المدينة ، حيث كان لها شان كبير في الجهاد ضد الصليبيين، ومقاومة الدولة الفاطمية، ولم تر المدينة عزاً بعد الدولة الاموية مثل العز الذي رأته ونالته في عهد نورالدين محمود، عمّرت المدينة في عهده، وأبطل المكوس والمظالم، ورفع السيف عن الضعفاء، وكان يأخذ مال الفداء ويعّمر به المدارس، والبيمارستانات، والجوامع ،ودور المرضى، والرباطات، ومكاتب الايتام، وزاد عمران المدينة حتى أصبحت دمشق من أكثر مدن الشام سكاناً آنذاك [27] ، ومن ثم لا ضير أن يكتسب عهده أهمية في ميدان البحث التاريخي لتفوقه في ميدانين: أحدهما أنه حقق سلسلة من الإنتصارات العسكرية والسياسية، والاستراتيجية ضد الصليبيين، وعّزز بذلك المنجزات السابقة التي حقّقها من سبقه، وكان أخرهم والده عمادالدين زنكي(521– 541هـ/1127–1146م) مؤسّس أتابكية الموصل وحلب، والأخر، وهو الأخطر والأهم أنه حقق بسياسته الإصلاحية

الواعية، والمسُتمدة من منابع الإسلام الأصيلة في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة ما كان يصبوا إليه من تحقيق الوحدة والتلاحم بين أبناء الأمة الاسلامية الواحدة.

2. رعاية السلطان نورالدين محمود للمذهب السني

يعتبر السلطان نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي (541–569هـ/ 1146–1174م) نموذجاً لأشهر القادة المسلمين خلال الحروب الصليبية، وُصف بالخليفة السادس نظراً لشدة ورعه وتديّنه، وحماسه للجهاد، ومواظبته على أداء الفرائض الدينية، وحرصه على نشر قواعد العدل، وإقامة حدود الشرع المطهر في مملكته[28]، وكان يسعى وهو في قمة السلطة " الى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم.."[29] ، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحل العظيم [30] ، يحضرهم الى مجلسه " فيدنيهم ويتواضع لهم واذا اقبل احدهم اليه يقوم له مذ تقع عينه عليه..ويجلسه معه ..ويقبل بكلتيه تعظيما وتوقيرا واحتراما"[31] ، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع اليا العلماء والفقهاء للبحث والنظر[32].

وقد اشادت المصادر التاريخية بشخصية نورالدين محمود وتدينه، وتقواه، وذكرت أنه كان كثير العبادة والصلاة ومطالعة الكتب الدينية،كثير التلاوة صموتاً وقوراً[33]، ورغم كثافة عمله السياسي والعسكري كان مهتماً بعلم الحديث الشريف وفهمه، ومواظباً على قراءة كتب الصحاح والسنن، صّنف كتاباً في فضائل الجهاد وأحاديثه[34] .

كما تروي المصادر التاريخية عنه أنه كان على إلمام ودراية بالفقه الحنفي من غير تعصب منه ولا تحيز، فالمذاهب السنية عنده سواء، لم يكن ليُفّرق بين مذهب سني وآخر ما دامت جميعها تسترشد بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وتُشّكل رافداً للعمل الإسلامي الموّحد من أجل رصّ الصفوف لمحاربة الصليبيين، لذلك ضّم مجلسه أصحاب المذاهب السنية الأربعة – الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي–، وأدرك أن خطورة الموقف السياسي المحيط به يتطلب توظيف كل الطاقات المخلصة لنبذ أسباب الخلاف والفرقة بين المسلمين، لذلك عمد في بداية حكمه الى التقريب بين المذاهب من خلال إنشاء المدارس السنية دون تفريق بين مذهب وآخر، وقد آوضح سياسته تلك بقوله: " نحن ما أردنا ببناء المدارس إلاّ نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة، وإظهار الدين"[35] .

ومن مظاهر إهتمام نورالدين محمود بنشر المذهب السني في البلاد الخاضعة لحكمه، بناءه المساجد، والمدارس والخانقاهات،والربط، ورصد لها الموارد والأوقاف بسخاء[36]، وقد وصف الرحالة ابن جبير ما راه في بلاد الشام من أوقاف خاصة بالتعليم فذكر أنه شاهد في الجامع الأموي بدمشق حلقات عديدة وأن:" للمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمس مئة انسان " [37].

كما شاهد في الجانب الغربي من الجامع زاوية للمالكية يجتمع فيها الطلبة المغاربة، ولهم اجراء معلوم من أوقاف كثيرة أوقفها السلطان على تلك الزاوية، منها طاحونتان،وسبعة بساتين، وحمام، ودكانان بالعطارين[38]، وقد أظهر إعجابه بكثرة الأوقاف التي خُصّصت للصرف على التعليم في دمشق فيقول:" ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف مُعينة من بساتين، وأرضي، ورباع ودور، حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه " [39].

وقد أحصى أبو شامة المقدسي(ت:665هـ/ 1266م)، ما أوقفه نورالدين محمود في سبيل الخير ووجوه البر في المنشور الذي أصدره سنة 552هـ/ 1157م بمائيي الف دينار، وكان قد خصّص قسماً كبيراً للصرف على مدارس المذاهب الأربعة، وعلى أئمتها، ومدرسيها، وفقهائها، وعلى تعليم الأيتام، والغرباء لا سيما المغاربة ممن إنقطعت بهم السبل[40] .

كما أشاد العماد الأصفاني(ت:597هـ/ 1201م) بأوقاف نورالدين محمود بالقول:" ولو شغلت باحصاء وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب ولم أبلغ الى امد" [41]، وكان أثر تلك الأوقاف والإنفاق المادي السخي واضحاً في إنتعاش حركة التعليم، ونشر المذهب السني في المساجد، والمدارس، وغيرها من دور التعليم في البلاد .

وقد تركّزت جهود نورالدين محمود لنشر المذهب السني في بلاد الشام دون غيرها من البلاد الخاضعة لحكمه كونها كانت تمثل قاعدة حكمه، لا سيما في مدينة حلب التي كان الشيعة يمثلون فيها غالبية السكان[42]،وكانوا شديدي التعصب، مما تطلب منه إتخاذ موقف حازم منهم، وإتخذ أُولى خطواته السياسية سنة 543هـ/ 1148م حيث أمر بابطال مظاهر التشيع في حلب،كالأذان بحي على خير العمل، والتظاهر بسب الصحابة رضوان الله عليهم، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وحّذرهم من مغبة العودة الى ما نهوا عنه[43].

كما قام بخطوة أُخرى كان لها تأثيرها الواضح على نشر المذهب السني ببلاد الشام عموماً، وهو قيامه بإنشاء المدارس السنية على المذاهب الأربعة ، وكانت أولى المدارس التي أنشاها في حلب عام 543هـ/ 1148م هي المدرسة الحلاوية التي أوقفها لتدريس المذهب الحنفي، وأسند مهمة التدريس فيها للفقيه الحنفي الشيخ برهان الدين البلخي (ت:548هـ/ 1153م) [44]، وكان الشيخ برهان الدين وتلامذته خير سند لنورالدين محمود على دعم موقفه ضد الشيعة، فقد ذكر ابن العديم أنه جلس تحت المنارة، ومعه الفقهاء وقال لهم:" من لم يؤذن الأذان المشروع فالقوه من المنارة على رأسه " ، فأذنوا الأذان المشروع، وإستمر الأمر منذ ذلك اليوم [45].

وكانت المدرسة الثانية التي أنشاها نورالدين محمود بحلب هي المدرسة النفرية النورية أنشاها سنة 544هـ/ 1149م لتدريس المذهب الشافعي، وإستقدم للتدريس بها من دمشق الفقيه قطب الدين النيسابوري(ت: 578هـ/ 1182م)[46].

لقد عرف عن نورالدين محمود حرصه على توحيد المذاهب السنية، والتقريب بينها، لذا لم يكتفي بإنشاء المدارس للحنفية والشافعية، بل أيضاً بالفقهاء المالكية والحنابلة [47]، كما أدرك أيضاً أهمية تدريس الحديث الشريف والإعتناء به ، وشغلت دراسات الحديث النبوي الى جانب الفقه حيزاً كبيراً في مجال التعليم ، وأصبحت كتب الحديث لاسيما الصحيحان–صحيح مسلم، والبخاري– مدار إهتمام المحدثين والفقهاء ، وفي عهده إنشئت أول دار حديث في الاسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق[48].

ويمكن القول أن الاهتمام بالحديث جاء ضمن التوجه الفكري الذي فرضه الوجود الصليبي على الدراسات في تلك الفترة، وفيه برز محدثون كبار كالامام الحافظ أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبدالله الشافعي المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت: 571هـ/ 1176م) الذي تصدّر التدريس بدار الحديث النورية بدمشق، وأمضى من حياته زهاء أربعين عاماً في الجمع والتصنيف والتدريس والتسميع، من مؤلفاته: (تاريخ دمشق) الذي يقع في ثمانين مجلداً، والأربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد أهداه الى نورالدين محمود [49] ،كما صنّف له ابن الجوزي (ت:597هـ/ 1201م)كتاباً جمع فيه أحاديث الجهاد، وفضائله في كتاب أسماه (البحر النوري) [50].

وقد تركّزت الجهود التي بذلها نورالدين في دمشق بعد ضمّها الى مملكته سنة 549هـ/ 1154م الى دعم المذهب السني، حيث أخذ يركز جهوده على إنشاء المدارس السنية فيها على المذاهب الأربعة لا سيما المذهبين الشافعي والحنفي[51]، كما لم يهمل بقية المناطق الخاضعة لنفوذه، فأنشا المدارس السنية في كثير منها، يقول ابن خلكان:" أنه بنى المدارس في بلاد الشام الكبار مثل دمشق، وحلب، وحمص، وبعلبك، ومنبج ،والرحبة ..وبنى بمدينة الموصل الجامع النوري، ورتّب له ما يكفيه ،وبحماة الجامع الذي على نهر العاصي، وجامع الرها، وجامع منبج" [52]، كما كان له دور في التوجه لإعادة مصر الى الصف السني [53].

ويبدو واضحاً ان نورالدين محمود ، وبقية الامراء الزنكيين قد ساروا على نهج السلاجقة في دعم المذهب السني، وإنشاء المدارس، والإنفاق عليها، من ذلك ما قام به أخوه سيف الدين غازي بالموصل (541–544هـ/ 1146– 1149م) من إنشاء المدارس، وتشجيع العلم [54]، كذلك ما قام به الأمير أسد الدين شيركوه (ت:564هـ/ 1168م) الذي كان من كبار امرائه، فقد شارك في بناء مدرسة خارج دمشق، ووقفها على المذهبين الشافعي والحنفي، وعرفت بالمدرسة الأسدية [55].

ولم يقتصر جهود نورالدين محمود والزنكيين عموماً على إنشاء المدارس، ودور العلم ، ورصد الأموال والأقاف عليها، بل كانوا يتحينون الفرص لدعوة خيرة العلماء وأكثرهم شهرة في مجال التخصّص، بل أن بعض المدارس إنشأت خصيصاً لعالم بعينه إشتهر بعلمه، وفضله، وبمكانته بين العلماء عصره ، وكان حريصاً على جلب العلماء من شتى الأقطار الاسلامية للإستفادة من خبراتهم في مجال التعليم ،ونشر المذهب السني ليكونوا عوناً له في تنفيذ سياسته التعليمية التي خطط لها في فترة مبكرة من حكمه، فكاتبهم وبالغ في إكرامهم والإحسان اليهم وأنشأ لهم المدارس ودور التعليم الأخرى[56].

وقد إستقدم في بداية حكمه وهو بحلب – الإمام برهان الدين علي بن الحسن بن محمد البلخي(ت: 548هـ/ 1153م) من دمشق بعد إستكمال بناء المدرسة الحلاوية بحلب، وفوّض إليه التدريس، كان أول من درّس بها وإستمر على ذلك الى وفاته سنة 548هـ/ 1153م[57]، كما إستدعى أيضاً من دمشق الفقيه الشافعي الشيخ قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد النيسابوري (ت: 578هـ/ 1182م)، وكان قد قدم دمشق سنة 540هـ/ 1145م، ودرّس في مدارسها، ثمّ رحل الى حلب بدعوة من نورالدين محمود فتّولى التدريس بمدرسته النورية وغيرها [58].

وعندما إستكمل بناء المدرسة العصرونية بحلب إستدعى الفقيه شرف الدين عبدالله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون (ت: 585هـ/ 1189م)، وكان من كبار الفقهاء الشافعية في عصره، درس في الموصل، وسنجار وأقام بها مدة، وفي سنة 545هـ/ 1150م، إنتقل بدعوة من نورالدين محمود الى حلب، ودرّس بمدارس عدة، وولي القضاء فيها، والنظر في الأوقاف، وبلغ مكانة عالية [59]، ونتيجة لتلك الجهود شهدت بلاد الشام نهضة سنية ، وأصبحت محط رحال علماء السنة من شتى البلاد الإسلامية للاستفادة من الفرص المتاحة للبحث والدراسة، فقصدها كبار الفقهاء والمحدثين، والصوفية، وصرفوا همتهم هناك للتدريس والوعظ والعبادة[60].

ومن مشاهير فقهاء الحنفية في عصره نذكر: الشيخ عبدالغفار بن لقمان بن محمد ابو المفاخر الكردي الملقب تاج الدين (ت: 562هـ/ 1166م) كان على غاية من الزهد والورع، تولى قضاء حلب للسلطان نورالدين محمود، وخلف أثاراً جمة في الفقه، واصوله، منها: شرح الجامع الصغير في الفروع للامام محمد بن الحسن الشيباني الحنفي (ت: 187هـ/ 803م) [61] ، وفي اصول الفقه شرح كتاب استاذه ركن الدين عبدالرحمن بن محمد الكرماني الحنفي(ت: 543هـ/ 1148م) الموسوم بالتجريد في كتاب سماه (المفيد والمزيد)[62] .

ومن فقهاء الحنفية انذاك:الفقيه رضي الدين محمد بن محمد السرخسي الملقب برهان الاسلام (ت: 571هـ/ 1175م) قدم بلاد الشام في عصر نورالدين، وتصدّر التدريس بدمشق وحلب، واشتهر بمصنفه الكبير(المحيط) في أربع مُصنّفات:(المحيط الكبير) في أربعين مجلداً ،والمحيط الثاني في عشر مجلدات ، والمحيط الثالث في أربع مجلدات والرابع في مجلدين[63].

وممن اشتهر بالفقه الحنفي الامام ابو بكر علاء الدين بن مسعود بن احمد الكاساني ملك العلماء المتوفي (ت: 587هـ/ 1191م) قدم الى

نورالدين محمود بحلب رسولا من ملك الروم، وكان قد تفقّه على ابي منصور بن احمد السمرقندي صاحب (تحفة الفقهاء) ، وزوجه شيخه ابنته فاطمة الفقيهة، وجعل مهرها شرح كتاب التحفة في كتاب اسماه (البدائع) فقال الفقهاء في عصره(شرح تحفته وزوّجه ابنته)[64] ، وكان كتاب (البدائع) اشهر مصنفات الامام علاء الدين الكاساني وهو من الكتب المعتبرة في الفقه الحنفي وسمي (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع وجاء في سبع مجلدات)[65] .

ولعّل من أبرز العوامل التي مكّنت نورالدين محمود من نشر المذهب السني هي بيئة دمشق التي كانت تختلف عن بيئة حلب لكون الغالبية من سكانها كانوا سنة، لذلك لم يواجه صعوبات كبيرة في نشر المذهب الحنفي، وبقية المذاهب السنية هناك، ولا ننسى أيضاً أن الدولة النورية هي إمتداد للدولة السلجوقية الام التي ساهمت في نشر المذاهب السنية من قبل، لذلك كان طبيعياً أن يسير الزنكيون على منوالهم، فتبّنوا نظم السلاجقة، وترسّموا خطاهم وساروا عليها في جميع أحوالها القائمة على جهاد الصليبيين، ومناهضة الفكر الشيعي في حلب، ودمشق، ومصر، وذكر ابن الأثير أنّ ديوان زنكي كان يشبه الى حد كبير دواوين السلاجقة في نظمه[66]، والمطّلع على التاريخ الإسلامي يلحظ إشتراك الدولة السلجوقية والزنكية، والأيوبية، والمملوكية – التي حكمت باسم الخلافة العباسية – في كثير من المعالم الحضارية التي تتقاطع فيها، وتتقارب بعضها من بعض أكثر من قربها من معالم الدولة العثمانية التي ورثت عنها زعامة العالم الإسلامي، والدولة الزنكية، وإن إستقلت عن الدولة السلجوقية سياسياً إلاّ أنها لم تبتعد عن فلكها الحضاري والفكري، وإستفادت من إرثها الحضاري .

ومن العوامل الأخرى التي مكّن السلطان نورالدين من تحقيق بنامجه الإصلاحي، ونشر المذهب السني في مملكته دعمه لبناء المدارس التي أتاحت له تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السنية حتى اصبحت دمشق، وبلاد الشام عموماً محط رحال كبار علماء السنة الذين كان لهم دور مشهود في القضاء على مظاهر التشيع في تلك البلاد، وممّا شجّع العلماء على الهجرة الى بلاد الشام آنذاك هو إنحسار نشاط المدارس النظامية بسبب تعصبها لمذهب بعينه، أما نورالدين محمود فإنه حاول أن يجمع بين المذاهب السنية جميعاً دون تمييز، وكان هدفه الرئيسي هو تعبئتها لمحاربة المذهب الرافضي، لذلك عرف عنه حبه الشديد لعلماء السنة على إختلاف مشاربهم المذهبية، فلم يثبت عنه تعصبه لمذهب بعينه، كما كان الشأن في العصر السلجوقي، وحظي المذهبان الحنفي والشافعي (الأشعرية) بفرصة أكبر للأنتشار، حين عّول السلطان عليهم لقدرتهم على الجدل وعلم الكلام لمأزرته في مسعاه لتضييق الخناق على الفكر الشيعي الرافضي، وإعادة الشام الى الحظيرة السنية، ولبناء مؤسساته الإدارية والدينية.[67].

ولا ننسى أيضاً أن شخصية نورالدين القيادية، في أن يصبح قدوة، ومحل ثقة الرعية وتقديرهم بما عُرف عنه من الورع، والتقوى، والاخلاص، فقد إشتهر بالإعتدال في نظام معيشته، بعيداً عن الترف، لا يلبس حريراً، ولا ذهباً ،وإستفتى العلماء في مقدار ما يحل له من بيت مال المسلمين " فكان يتناوله، ولا يزيد عليه شيئاً " [68] ، وكان عادلاً، زاهداً ،عابداً، ورعاً، فقيهاً، مجاهداً في سبيل الله، يميل الى أهل الخير، كثير الصدقات والأوقاف على الايتام والأرامل، وذوي الحاجات [69] ، حريصاً على تحقيق العدل في رعيته، وكان يجلس بنفسه في دار العدل بدمشق للنظر في أمور الرعية، وكشف ظلاماتهم [70]،وذكر الحافظ ابن عساكر الدمشقي:" كنا نحضر مجلس نورالدين، فكنا كما قيل:كأن على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، واذا تكلم أنصتنا، واذا تكلمنا إستمع الينا " [71]، يملك هيبة عجيبة على موظفيه صغيرهم وكبيرهم ، وكان مع هيبته ، متواضعا " اذا دخل عليه الفقيه او الصوفي او الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه الى جانبه ويقبل عليه بحديثه كانه اقرب الناس اليه" [72] ، و" كانت اليه النهاية في الوقار والهيبة .. شديدا في غير عنف ، رقيقا في غير ضعف"[73]، قادراً على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة والشدة واللين والعنف والرحمة مائلا – بقدر – الى هذا الجانب او ذاك حيثما تطلب الموقف ذلك.

وإعتمد نورالدين في ادارته لدولته المترامية على عدد كبير من الرجال المخلصين الأكفاء وكان يختارهم بعيداً عن إنتماءانتم الاجتماعية، ولم يتقدم لديه إلاّ ذو الفضل، والقدرة على الإنجاز، الأمين المسؤول بغض النظر عن الإعتبارات الشكلية التي كان يرفضها رفضاً قاطعاً، وكان من بين موظفيه عدد من غير الشاميين ممن جاءوا من أقاصي المشرق والمغرب، ولم يكن ليضع حداً بينه وبين الرعية، ولم تكن الإدارة عنده لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة كما هو الحال في كثير من الدول والحكومات ولا لتحقيق مصالح فئة، وانما كانت هنالك أهداف أكبر بكثير وقيماً ومباديء أبعد كان يسعى لتحقيقها ، فقد كان هدفه المركزي تفعيل شريعة الإسلام، وقيمه ومبادءه في واقع الحياة، وجاء عنه قوله: " نحن شحن للشريعة ننفذ أوامرها " [74] .

3. المدارس الحنفية بدمشق

تمُثل المدارس أحد مكونات العمارة الإسلامية المهمة [75]، وشّكل وجودها مرحلة متطورة في سلسلة التطورات التي مرّت بها حركة التعليم في المجتمع الإسلامي، ولم يكن ظهورها مفاجئاً بل جاء تطوراً منطقياً لوظيفة المسجد، ولم يقتصر التدريس فيه على العلوم الدينية ،بل تعداه يوماً بعد يوم لتدريس شتى الوان المعارف والعلوم[76] ويذكر المقريزي(ت:843هـ/1441م) أن المدارس كانت مّما إستحدث في الاسلام، إذ لم تكن تُعرف في زمن الصحابة والتابعين، وإنما ظهرت بعد الاربعمائة من سنى الهجرة ، وكان أول مدرسة بنيت

في الإسلام هي المدرسة البيهقية في نيسابور بخراسان، ثمّ تتابع إنشاء المدرس بعد ذلك، فاشتهرت المدرسة النظامية ببغداد التي نسبت الى نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملكشاه (465–485هـ/ 1073–1092م)، شيّدت سنة 457هـ/ 1064م وإفتتحت سنة 459هـ/ 1066م[77] .

ولم تكن المدارس في بدايات ظهورها تختلف عن هيئة المساجد ،لذلك كانت لا تخلو من وجود بيت للصلاة، ومن وجود إمام، ومؤذن للقيام بالصلوات الخمسة،كما إقيمت في بعضها صلاة الجمعة [78]، حيث كان كلاهما مكاناً للعبادة والدراسة معاً، غير أن المدرسة تميّزت عن المسجد بخواص مُعينة أهمها: أن المدرّس بها معين من قبل الجهة المشرفة، على خلاف المدّرس بالمسجد الذي يجلس في أي مسجد يشاء، ويدّرس ما يشاء من الموضوعات إذ أنه غير معين من أية جهة، ويكون عدد الطلبة في المدرسة محدوداً، أما المسجد فليس كذلك، وما يميّز المدرسة أيضاً وجود الإيوان – قاعة المحاضرات–، ومساكن المدرسين والطلبة، وما يتبعها من مرافق أخرى،كالمكتبات ليرجع اليها الطلبة والمدرسون في تحصيلهم العلمي[79] .

وكان الكادر التعليمي، والإداري في المدرسة آنذاك يتألف عادةً من: ناظر وقفها، ومدرسوها على إختلاف طبقاتهم، والإمام، والمؤذنون، والقّيم على المدرسة، فضلاً عن الموظفين في المكتبة: كالخازن (الأمين) ،والنُسّاخ، والمجلدون ،والمناولون[80].

وكان المدرسون على فئتين: مدرّسين ومعُيدين، والمدرس هو من يتصّدر لتدريس العلم من تفسير، وحديث وفقه، ونحو، وتصريف، وغير ذلك[81] ، أمّا المعيد فكان يلي رتُبة المدرس، والاصل فيه أنه إذا القى المدّرس الدرس، وإنصّرف، أعاد المعيد الدرس على الطلبة [82]، وكان مُهمته توضيح الغامض لهم، فكان المدرس يلقى الثقافة العالية على سامعيه، فمن إحتاج الى إيضاح شيء، أو فهمه، عاد في ذلك الى المعيد، ومن أجل هذا كان المعيد يجلس الى جانب المدرس[83] ليعرف سير الدرس، فيوضح ما خفي منه ، ويكون للمدرس الواحد معيد أو أكثر تبعاً لعدد الطلبة وكثرتهم ، وربّما تولّى البعض المدرس التدريس في أكثر من مدرسة، أو جمع بين التدريس، ووظائف أُخرى كالقضاء، أو الخطابة [84]، وجرت العادة عند الفراغ من بناء مدرسة أن يحتفل بافتتاحها بحضور السلطان، أو من ينوب عنه من كبار رجال الدولة من الأمراء والقضاة، وكبار أعيان البلد[85] .

وقد أولى نورالدين محمود إهتماماً ملحوظاً بالمدارس لدورها الكبير في النهضة الفكرية ، وكونها إحدى الدعائم الأساسية التي بنى عليها دولته على المستويين السياسي والديني، كما كانت بمثابة قلاع فكرية لنشر الفكر السني، ووسيلة لتخريج موظفين أكفاء أمناء ،ومخلصين للدولة الجديدة، وإشتهر العصر الزنكي بإزدهار عنصرين من عناصر العمارة الإسلامية الأولى: المدارس،والثاني:بناء الأسوار والقلاع [86] .

وعلى الرغم من نورالدين محمود لم يكن مُبتكراً لنظام المدارس، وإنما مُحاكياً للسلاجقة، إلا أن توسعه في إنشاء المدارس بحد ذاته جاء مظهراً قوياً لإزدهار الحياة العلمية في عهده من جهة، وكذلك دليلاً على مدى حماسه وإخلاصه للمذهب السني، والتصدي من خلالها للدعوات المضادة لفكر السنة والجماعة،يقول ابن خلكان بهذا الصدد ممتدحاً نورالدين محمود" كان ملكاً عادلا زاهدا، عابداً، مجاهداً في سبيل الله تعالى، كثير الصدقات ،بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق ،وحلب ،وحممص ،وبعلبك، ورفح، والرحبة" [87].

ويمكن القول أن المدارس هي ظاهرة سنية بحد ذاتها ،تمّ تبنّيها من قبل القوى السنية كالسلاجقة، والزنكيين، ومن بعدهم الأيوبيين، أما الفاطميون الشيعة فإنهم لم يتخذوا مُؤسسات تشبه المدارس، وإنما تركّز التعليم عندهم في الجوامع والمساجد، فعلى سبيل المثال كان الجامع الأزهر، بالإضافة إلى دار العلم التي أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله سنة 395هـ/1005م مقرات لداعي الدعاة الفاطمي، كما كانت مراكز نشطة للدعاية الفاطمية[88].

وُيذكر أن التداخل الوظيفي بين المسجد والمدرسة ظل قائماً، حيث بقي أحدهما مُكّملاً للأخر في أداء الوظيفة الدينية، ونشر المذهب السني، وهي نتاج مرحلة لاحقة تلت المسجد، وما كان يقوم به من دور ديني وتعليمي في المراحل الأولى، حيث كانت تُعقد فيها حلقات العلم ومجالسه، وعموماً يمكن القول إنشاء المدرسة جاء لتلبية ثلاث إعتبارات أساسية هي:

أولاً – لتقوية الاسلام السني في مواجهة التحدي الشيعي في القرن 4هـ / 10م، والذي يحق لنا ان نُسميه عصر إنتصار الشيعة، ففيه مّد الفاطميون نفوذهم الى مصر والشام، وشمال افريقيا، وتحّكم البويهيون الشيعة في رقعة جغرافية عريضة، وفرضوا سيطرتهم على عاصمة الخلافة بغداد، قبل أن يضطلع الغزنويون، والسلاجقة بدورهم في إحياء ونشر المذهب السني [89].

ثانيا– إعداد كوادر موالية للدولة عن طريق تأييد المذاهب الفقهية، بحيث أصبحت المدارس بمثابة مُؤسسات رسمية لتخريج موظفين أكفاء، وأمناء، ومخلصين للدولة الجديدة وفق الفكر السني، فضلاً عن كونها من أعمال الخير كونها كانت ملاجيء يلجأ اليها الفقراء والغرباء المنقطعين لتلقي علوم دينهم ودنياهم، لذلك حرص المنُشئون على تجهيزها بكل ما تحتاج اليه من نفقات [90].

ثالثاً– لتلبية رغبة السلاطين، والحكام في إحكام سيطرتهم على رجال الدين الذين درسّوا المذاهب الفقهية المعتمدة في الدول السنية في هذه المدارس[91].

وقد سار الزنكيون على خطا السلاجقة في انشاء المدارس، ووجدت هذه السياسة تأييداً كبيراً منهم، لا سيما السلطان نورالدين محمود زنكي الذي كانت تغدوه رغبة جامحة في ضرورة نشر الفكر السني بمملكته، فأنشأ العديد من المدارس، ودور الحديث للمذاهب السنية،

لا سيما في المدن التي كانت تشّكل تهديداً لمشروعه في بناء الجبهة الإسلامية القادرة على التصدي للصليبيين، لذلك إهتم بإنشاء المساجد والمدارس والربط بشكل لم يسبق له مثيل ، ويقول العماد الاصفاني(ت:597ه، 1201م) المعاصر لنورالدين:" ولو إشتغلت باحصاء وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب، ولم أبلغ الى أمد ، ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته يغني عن خبرها بالعيان ،ويكفي أسوار البلد فضلاً عن المدارس والربط..."[92].

ومن الجدير بالذكر أن المدارس الحنفية بدمشق خلال العهد النوري تمتعت بنظام إداري، وتعليمي دقيق ضمن لها الإستمرار في أداء دورها ووظيفتها العلمية، وكانت المدارس في غالبيتها احادية المذهب، أما المدارس المشتركة التي كانت تضم أكثر من مذهب فإنها كانت قليلة ونادرة[93]، وكغيرها من المدارس السنية ،كان الإهتمام فيها مُنصّباً على نشر المذهب السني، ومقاومة التشّيع الذي كان مُنتشراً في بعض مناطق الشام، لذلك تركّزت الدراسة في غالبية المدارس آنذاك على العلوم الدينية وفق منظور المذهب الفقهي الذي أنشئت المدرسة من أجله، مع دراسة ما يتصل بها من بقية العلوم، لا سيما علوم اللغة العربية وآدابها، وكانت مناهج التدريس مُقيّدة في الغالب بالإتجاه الذي يرسمه منُشؤها، وبما يشترطونه من المناهج ، وورغم أنّ المدارس كانت قد أنشئت لتكون مراكز للعلوم الدينية، إلا أن الوضع ما لبث أن تغير فيما بعد حتى غدت مراكز لدراسة معارف أُخرى كالطب ،والعلوم الرياضية، والفلك، والتاريخ، ولكن على نطاق محدود [94].

كانت المدارس في الغالب تُسمى باسم مُنشئها، وجرى التقليد أن يقوم مُؤسس المدرسة بتعيين مدّرس تقع عليه مُهمة التدّريس، يُعاونه في ذلك معيد أو أكثر، وكان دور المعيد يلي دور المدرس من حيث الأهمية، وعليه تقع مهمة تلاوة المحاضرة بعد إنتهاء الدرس وإفهامها لمن لم يستوعبها من الطلبة.[95]، ولهذا كان هناك إختلاف في مناهج التدريس ،وطرقها بين مدرسة وآخرى، وكان المنشئون، وأرباب الوقف يضعون شروطاً في شيخ المدرسة حسب رغبات وأهداف يريدون تحقيقها في مدارسهم ،كأن يكون المدّرس من أهل الخير والعفاف، سليم الإعتقاد، ومن أهل السنة، وأن يكون أعلم أهل زمانه في مذهبه ، فعلى سبيل المثال شرط واقف المدرسة القضاعية[96] أن يكون المدرس بمدرسته أعلم الحنفية بالاصول[97].

وشرط بعضهم فيمن يختارونه للتدريس التفرغ التام للتدريس[98]، وكان بعض المدرسين يسكنون داخل المدارس التي تضم أماكن لسكن المدرسين والطلاب[99]، وذكر النعيمي أن من شرط المدرسة الركنية البرانية، وهي للأحناف أن يُقيم شيخ المدرسة بها[100].

وكان المدرسون يتقاضون أجورهم، ومرتباتهم من وقف المدرسة، وربّما وصل مرتب البعض الى ستين ديناراً [101] ، أو أقل من ذلك بكثير ، حيث كانت المرتبات تتفاوت بين مدرسة وأُخرى، وكان بعض العلماء من الأغنياء لا يأخذ من رواتب المدرسة شيئاً، ويتولى التدريس إحتساباً كالشيخ علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الذي كان لا يأخذ من معلوم المدرسة شيئاً، بل يجعله لمن يرد عليه من الطلبة[102].

وقد بلغت مُرتبات المدرسين في عهد نورالدين، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي قدراً كبيراً، فقد كان ينفق على فقهاء دمشق فقط، وكانوا ستمائة فقيه زهاء ثلاثمائة الف دينار[103]، وكانت المدارس تستقبل الطلبة بالمجان ،وتهيء لهم ما يعينهم على التفرغ للدراسة ،من توفير السكن، والطعام[104] ، وكان بعض الواقفين يشترط على الطلاب الاقامة في المدرسة للإنقطاع في تحصيل العلم، حيث شرط واقف المدرسة الباذرائية " أن يقيم الفقيه بالمدرسة، وأن يكون أعزباً ،ولا يكون في غيرها من المدارس" [105].

وكان من الطبيعي أن يركّز العلماء على كتب الفقه الحنفي،لا سيما المشهورة منها: مثل:كتاب(الجامع الكبير في الفروع)، و(الجامع الصغير) للأمام أبي عبدالله محمد بن الحسن الشيباني الحنفي(ت: 189هـ/342م) ، وكانا يُعدان من أمهات الكتب المشهورة في الفقه الحنفي، فالجامع الكبير وصف بأنه من أحسن الكتب المؤلفة في الفقه، وكان المصنف إماماً في الفقه والأصول، وروى عن الأمام الشافعي وغيره[106]، وكان الملك المعظم عيسى بن ابي بكر بن أيوب (ت: 636هـ/1238م) قد وضع شرحاً على الجامع الكبير[107] ، وكان يعطي مائة دينار لمن يحفظ الجامع الكبير، وخمسين ديناراً لمن يحفظ الجامع الصغير[108].

كما نال كتاب (مختصر القدوري) عناية كبرى في ذلك العصر ، ومؤلفه أحمد بن محمد بن أحمد القدوري البغدادي(ت: 428هـ/1036م) الذي إنتهت إليه رياسة الحنفية بالعراق، والّف كتباً عديدة في الفقه الحنفي، ومسائل الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي، وبينه وبين أصحابه[109]

وإتبع بعض العلماء في تدريسهم طرقاً وأساليب تدريسية طريفة ومشوقة، فكان بعضهم لا يبدأ تدريس الفقه حتى يذكر قبله درساً في التفسير[110]، ووصف بعض المدرسين بحسن إيراده لدرسه، وبراعته في القائه له، وصبره على تعليم الطلبة وتفقيههم[111]، وإعتمد الطلاب على طريقة حفظ الكتب والمتون[112]، وبرعوا في ذلك كأن يقال:كان يحفظ (الوسيط) للغزالي و(التنبيه) في الفقه للشيرازي وهكذا[113]، وكان بعضهم يختار لنفسه كتاباً من كتب العلم منهجاً، ثمّ يقرأه على أحد الشيوخ حتى يتقنه ويحفظه[114].

كما أن اسلوب الالقاء والتلقين، والمناقشات العلمية كان سائداً بين العلماء والطلاب داخل المدارس، حيث يجلس المدرس ويحلق به الفقهاء والطلاب، فيذكرون المسائل ويأخذون في طرحها وتفصيلاتها، ويشاركه العلماء في بحثها فيأخذ الحنفي في الإنتصار لقول إمامه ،ويعارضه الشافعي مُدلياً بحجة ويُشاركهم المالكي والحنبلي، وهم على ذلك حتى فراغهم من درسهم[115].

وكانت مدينة دمشق في مقدمة الحواضر الشامية التي حظيت بإهتمام السلطان نورالدين محمود زنكي، وسعيه الحثيث لترسيخ الفكر السني هناك من خلال إنشاء المدارس[116]، وأول مدرسة أشارت المصادر الى إنشائها في دمشق هي المدرسة الصادرية التي يعود إنشائها الى سنة 491هـ/ 1097م، وكانت خاصة بالمذهب الحنفي، ثمّ تلا ذلك إنشاء العديد من المدارس في العهد النوري لدمشق (549–569هـ/ 1154–1174م)، توزّعت على المذاهب السنية الأربعة، ولكن المذهب الحنفي، والشافعي كانا هما السائدان على المدارس الأخرى، يليهما المذهب الحنبلي، وأخيراً المذهب المالكي، ويمكن القول أن دمشق سبقت بغداد في إنشاء مدارسها النظامية بنحو ستين سنة، وسبقت مصر بمائة وستة وستين سنة [117]، وبشكل عام شّكلت مدارس المذهب الحنفي الغالبية فيها كما يلي:

1–المدرسة الصادرية:

أنشاها الامير شجاع الدولة صادر بن عبدالله سنة 491هـ/ 1097م، وهي أول مدرسة أُنشئت بباب البريد على الجامع الأموي بدمشق[118]، ويظهر أنه بنى بها منزلاً لسكنى الطلبة والمدرسين(119)، ولم يبقى من معالمها، وأطلالها الا بعض من صحنها[120]، وأول من درّس بها في العهد الزنكي هو: الإمام الفقيه علي بن احمد بن مكي الكاساني(ت: 598هـ/ 1201م)، كان يدّرس بالمدرسة الصادرية، ويفتي على المذهب الحنفي،ويُناظر في مسائل الخلاف (121).

كما درّس فيها الحافظ أبو محمد عبدالخالق بن اسد الدمشقي(ت: 564هـ/ 1168م) [122]، والفقيه الواعظ أبو الظفر محمد بن اسعد ابن الحكيم العراقي(ت:567هـ/1171م)[123]، وممن تولّوا التدريس بها أيضاً:الشيخ محمد بن محمد الختني (ت: 576هـ/ 1180م) أحد الوافدين من بلاد ما وراء النهر ، وكان قد إستقر بدمشق أيام الدولة النورية، وبقي يدرّس فيها حيناً قبل رحيله الى مصر[124]، وآخرون تعاقبوا عيها في العصر الأيوبي.

2– المدرسة الطرخانية:

أنشاها الامير الحاج ناصر الدولة طرخان بن محمود الشيباني (ت: 520هـ/ 1126م) ، وهو أحد الأمراء الكبار بدمشق[125]، وكانت ضمن المساجد، عرفت بدار طرخان، وقفها مدرسة لأصحاب المذهب الحنفي، وموقعها قبلي المدرسة البادرائية بباب جيرون[126]، وأول من تصّدر التدريس فيها: الشيخ برهان الدين أبي الحسن البلخي (ت: 548هـ/ 1153م) [127]، ثمّ درّس بها آخرون منهم: الشيخ ابو المظفر محمد بن اسعد بن الحكيم العراقي مدرس الصادرية (ت: 567هـ/ 1171م)[128].

3– المدرسة المعينية:

وتنسب الى الأمير معين الدين أنر بن عبدالله الطغتكيني مقدم العسكر، ومدبر الدولة البورية، وأتابك الأمير مجير الدين ابق– آخر الحكام البوريين بدمشق–، وكان موصوفاً بالشجاعة، والتقوى والتدين، محباً للخير، وأعمال البر والصدقات، من جملتها هذه المدرسة التي أنشئها بدمشق، وفيها دفن عند وفاته سنة 544هـ/ 1149م[129]، وذكر النعيمي أن موقع المدرسة بالطريق الأخذ الى باب المدرسة العصرونية الشافعية[130] ، وممن تولّى التدّريس فيها: الشيخ أبي المظفر بن اسعد الفقيه الحنفي المعروف بابن الحكيم العراقي (ت: 567هـ/ 1171م)، وكان أول المتصّدرين بها [131]، ودرّس بها أيضاً:الحافظ عبدالخالق بن اسد الدمشقي (ت: 564هـ/ 1168م)[132].

4–المدرسة الخاتونية البرانية:

ويُنسب وقفها الى زمرد خاتون بنت الأمير جاولي اخت الملك دقاق بن تتش صاحب دمشق لامه (ت: 557هـ/ 1161م)، وزوجة تاج الملك بوري، وام ولديه شمس الملك اسماعيل، ومحمود، تزوجها الأتابك عماد الدين زنكي، فبقيت معه حتى مقتله سنة 541هـ/ 1146م[133] ، وتقع المدرسة في مكان يُعرف بصنعاء الشام ،وهي قرية بالغوطة في دمشق[134].

وكانت الست زمرد خاتون من النساء العالمات، على قدر من والعلم والتدّين ،حافظة للقرآن الكريم، تزوّجها أتابك زنكي، فبقيت معه حتى وفاته، ثمّ حجّت، وجاورت بالمدينة، وبها كانت وفاتها سنة 557هـ/1161م[135].

ويعود تاريخ بناء المدرسة الى سنة 526هـ/ 1132م، وهي من كبريات المدارس بدمشق، وأكثرها وقفاً[136]، وصفها البدري بالقول:" هي من أعاجيب الدهر يمر بصحنها نهر بانياس، ونهر القنوات على بابها، ولها شبابيك تطل على المرجة، وبها الواح الرخام لم يسمع الزمان بنظيرها " [137]، وهي من المدارس الخاصة بالمذهب الحنفي، وكان الشيخ أبو الحسن علي البلخي(ت: 548هـ/ 1153م) أول من تصّدر التدريس فيها،كما تولّى التدريس بها: الشيخ محمد بن محمد رضي الدين السرخي(ت571هـ/ 1175م)[138]، ثمّ تعاقب عليها أخرون بعد العهد الزنكي[139].

5– المدرسة البلخية:

أنشاها الأمير كز الدقاقي بعد سنة 525هـ/ 1130م، بناها للشيخ برهان الدين أبي الحسن علي البلخي (ت: 548هـ/ 1153م)[140] ، وبقيت في العصر الأيوبي [141].

6– المدرسة الريحانية:

بدمشق انشاها للحنفية ريحان الطواشي سنة 565هـ/1158م ،وكان من خدام السلطان نورالدين محمود[142]

7 – المدرسة النورية الكبرى:

وهي من مدارس دمشق المشهورة، وتنُسب الى السلطان نورالدين محمود، وفيها دفن، وتقع بخط الخواصين الى الجنوب الغربي من الجامع الاموي[143]، وكان قد شرع ببنائها سنة 563هـ / 1167م[144]، ولم يكتمل العمل بها الا في سنة 567هـ/ 1171م

وقد كتب نص الوقف على الحجر المثبت على العتبة العليا للمدخل ،وهذا نصّه:" بسم الله الرحمن الرحيم أنشا هذه المدرسة المباركة الملك العادل الزاهد نورالدين أبو القاسم محمود بن آق سنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الامام سراج الامة أبي حنيفة رضي الله الله عنه، ووقف عليها ،وعلى الفقهاء والمتفقهة بها جميع الحمام المستجد بسوق القمح والحمامين المستجدين بالوراقة ظاهر باب السلامة، والدار المجاورة لهما، والوراقة بعوينة الحمى، وجسر الوزير، والنصف والربع من بستان الجوزة بالارزة، والاحدى والعشرين حانوتاً خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، على ما نص وشرط فكتب الوقف رغبة في الأخرة والثواب وتقدمه بين يديه يوم الحساب: فمن بدّله بعدما سمعه فانما إثمه على الذين يبدّلونه ان الله سميع عليم " [145].

مما سبق يتضح أهمية الوقف في بناء المدارس، والإنفاق عليها، فقد كان مُنشئوها من السلاطين والوزراء والأعيان يحبسون عليها الأوقاف لتصرف عليها وعلى عمارتها[146]، وكان من البديهي أن تتفاوت المدارس فيما بينها من حيث المساحة والبناء ، والمرافق الملحقة بها تبعاً للأوقاف المرصودة عليها، وكان بعضها في الأصل داراً للواقف يسكنها، ثمّ يوقفها مدرسة بعد موته أو في حياته [147] ،وهذا ما يفسر لجوء واقفيها الى تحديد عدد الطلاب بعشرين طالباً، بينما تمّيز بعضها الآخر بفخامة البناء، وجودته، وكثرة المرافق والأوقاف[148] ، ومن ثمّ قدرتها على إستيعاب عدد كبير من الطلبة كالمدرسة النورية التي وصفت بفخامة البناء وجودته وكثرة المرافق والأوقاف[149]، كانت في مقدمة مدارس دمشق لا سيما في عهد مُنشئها، وكذلك في الفترات اللاحقة، ولم يخفي الرحالة ابن جبير إعجابه بالمدرسة عند زيارته لها سنة 580هـ/ 1184م فوصفها بالقول: " وهي من أحسن مدارس الدنيا منظراً، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصّب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثمّ يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار .." [150].وجاء عن الشاعر حسان بن نمير المشهور بعرقلة الكلبي الدمشقي (ت: 567هـ/ 1171م) يصف هذه المدرسة:

ومدرسة سيدرس كل شيء وتبقى في حمى علم ونسك
تضوع ذكرها شرقا وغرباً بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق بغير
كنـــــــــــــــاية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكي وهذي في المدارس بيت ملكي[151]

وتتضح أهمية المدرسة في الأثر العلمي الذي قام به شيوخها ومدرّسوها، وفي الأعداد الكبيرة من الطلاب الذين تخرجوا منها، إضافة الى ما قامت به تلك المدرسة من نشاط سياسي واجتماعي في ذلك العهد، وممن تصدّر التدريس بها نذكر:.الشيخ بهاء الدين بن العقلد (ت: 596هـ/ 1199م) وكان أول من تولّى التدريس بها [152]، كما تولّاها الشيخ أبو الموفق مسعود بن شجاع الاموي الدمشقي(ت: 599هـ/ 1202م)، ثمّ وليّ التدريس بعده أولاده[153].

8– **المدرسة الزنجارية:**

نسبة الى فخرالدين عثمان بن الزنجيلي(ت577هـ/ 1181م) [154] ، وأول من درّس بها الشيخ حميد الدين السمرقندي، ثمّ وليّ التدريس فيها آخرون في العصر الأيوبي والمملوكي[155].

9– **المدرسة البدرية:**

بناها الأمير بدرالدين لالا [156] أحد أمراء السلطان نورالدين محمود، بناها سنة 575هـ/ 1179م[157]، وإشترط الواقف في مدرس المدرسة أن يكون حنفياً مشهوراً بالحديث[158]، وأول من درّس بها الشيخ زكي الدين زكريا بن عقبة، و صفي الدين يحيى بن فرج بن هياب الحنفي البصراوي[159]، كما تولّى التدريس بها في العصر الأيوبي الفقيه المؤرخ يوسف بن علي سبط بن الجوزي (ت:654هـ/ 1256م) وكانت هي سكنه[160].

10– **المدرسة الاسدية:**

أنشأئها الأمير اسد الدين شيركوه، أحد أمراء نورالدين محمود قبل وفاته سنة 564هـ/ 1168م، ولا تزال أنقاضها باقية الى اليوم[161]، وموقعها خارج أسوار المدينة، شمالي الميدان الاخضر[162]، وهي من المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية، درّس فيها عدد من شيوخ هذين المذهبين خلال العهد الزنكي ذكرهم منهم:الواعظ الحنفي الفقيه ابو محمد عبدالله بن سعدالله البجلي الجريري البغدادي الحنفي الواعظ المعروف بابن الشاعر، سكن دمشق، ودرّس بها مدة قبل رحيله الى لقاهرة التي فيها كانت وفاته سنة 584هـ/ 1188م[163]، وكان قد قدم دمشق وسمع من الحافظ ابن عساكر، وغيره من شيوخ ذلك العصر[164]، كما ذكر ابن شداد عدداً ممن درّسوا في هذه المدرسة على المذهبين الحنفي والشافعي في الفترة الاحقة للعهد الزنكي[165].

4. الإستنتاجات

بعد الإنتهاء من البحث يمكن إستخلاص جملة من الإستنتاجات كالآتي:

1- تُمثل المدارس مظهراً من مظاهر العمارة الإسلامية، وإقترن إنشاءها بنشر المذهب السني منذ مجيء السلاجقة، وظهور النظاميات، إلاّ أنّ العهد الزنكي شهد زيادة في إنشاء المدارس السنية على إختلافها، وزاد عددها في ذلك العهد عن خمسين مدرسة، إضافة الى المساجد، ودور الحديث، والخوانق، والربط، وظهر الإرتباط الوثيق بين إنشاء المدارس، وحاجة الدولة، وسياستها في توجيه تلك المؤسسات للوقوف بوجه المذاهب، والتيارات الفكرية المضُادة للدولة، وهذا ما قام به نورالدين محمود في بلاد الشام من خلال

إنشائه المدارس السنية لمقاومة المذهب الشيعي من جهة، والتصّدي للوجود الصليبي من جهة أُخرى .

2- حظي نشر المذهب السني بدعم ورعاية السلطان نورالدين محمود بشكل ملحوظ أكثر مما كان عليه في عهد والده السلطان عماد الدين زنكي، الذي خاض الكثير من الحروب، وإنشغل في إرساء قواعد الحكم، لذلك لم تتح له الفرصة الكافية مثل إبنه نورالدين محمود في الإهتمام بالنواحي العمرانية والفكرية .

3- أدرك نورالدين محمود منذ تسلمه السلطة، خطورة الموقف السياسي المحيط به، والمتمّثل بالوجود الصليبي من جهة، والصراع والإنقسامات بين القوى الإسلامية المحلية من جهة أخرى، الى ضرورة توظيف التعليم لخدمة مصالح دولته، كرغبته في التخلي عن قيود الإنتماء المذهبي الضيق، ونبذ الخلافات بين المذاهب السنية، لذلك عمد منذ البداية الى التقريب بين مذاهب السنة، وإنشاء المدارس لخدمة المذاهب جميعها دون إستثناء ،وتوظيف ذلك في توحيد البلاد فكرياً قبل توحيدها سياسياً، ومن ثم يمكن القول أن تجربته في هذا المسار تختلف عن تجربة السلاجقة، فعلى الرغم من ميله الى المذهب الحنفي، الا أنه لم يكن متُعصباً له ، بحيث يلغي ما سواه من المذاهب السنية،، وكان لهذا العامل أثر في نجاحه الكبير في إنحسار المد الشيعي لا سيما في بلاد الشام، ومصر، على عكس تجربة السلاجقة، ووزيرهم نظام الملك التي لم تخلو من سلبيات في مُقدمتها أن مدارسه – النظاميات– إقتصرت على مذهب واحد من مذاهب السنة، لذلك فان نتائجها لم تكن بالمستوى الذي حققه نورالدين محمود.

4- كان للظروف السياسية، لا سيما الخطر الصليبي دور في صياغة الحركة الفكرية، وتوجيهها نحو الدراسات الدينية التي تركّزت على دراسة القرآن الكريم، والسنة النبوية، والعلوم الشرعية ، وكل ما له صلة بحشد الطاقات، وتوجيهها لجهاد العدو الصليبي، وإضطلعت المدارس بدور بارز في النهضة الفكرية ،كونها كانت إحدى الدعائم الأساسية التي بنى عليها نورالدين محمود دولته على المستويين السياسي والديني، فكانت بمثابة قلاع فكرية لنشر الفكر السني، ووسيلة لتخريج موظفين أكفاء أمناء، ومخلصين للدولة الجديدة.

5- تمتعت المدارس بدمشق خلال ذلك العصر بنظام إداري، وتعليمي دقيق ضمن لها الإستمرار في أداء دورها ووظيفتها العلمية، وكانت المدارس في غالبيتها آحادية المذهب، أما المدارس المشتركة التي كانت تضم أكثر من مذهب فإنها كانت قليلة ونادرة، وكانت مناهج التدريس فيها مُقيّدة في الغالب بالإتجاه الذي يرسمه منُشؤها، وبما يشترطونه من المناهج .

6- ظهر من خلال البحث أن مدينة دمشق كانت تختلف عن غيرها من المدن الشامية ،كون المذهب السني كان هو الغالب فيها قبل مجيء نورالدين محمود، على عكس مدينة حلب التي كان المذهب الشيعي مُترسخاً فيها، لذلك لم يلاقي نورالدين محمود صعوبات تُذكر في نشره هناك ،على عكس حلب، ومناطق أُخرى، وكان المذهبان الحنفي ثمّ الشافعي هما الغالبان بدمشق.

7- كما ظهر من خلال البحث أهمية الأوقاف في إدامة وإستمرار حركة التعليم في المدارس، وقد ساهم نورالدين محمود ، والأمراء، والأغنياء في رصد الموارد الكافية على المدارس للقيام بوظيفتها على أتمّ وجه، وكان المدرسون والطلاب يتقاضون أجورهم، ومخصّصاتهم من وقف المدرسة، الاّ أن الاجور والمرتبات لم تكن وحدة ، فقد تباينت من مدرسة الى أخرى حسب الوقف والموارد المتاحة لكل منها.

أصبحت مدينة دمشق في عهد السلطان نورالدين محمود مركزاً لإستقرار كبار علماء السنة، لا سيما من الأحناف والشافعية، وحظوا برعاية ودعم الدولة لهم، وإنصرف الكثير منهم الى التدريس، والتأليف والوعظ، وساهم دعم السلطان للمذاهب السنية دون إستثناء في تنوّع الدراسات الشرعية، والتواصل بين العلماء من مختلف المذاهب السنية، ولعّل من أبرز سمات النهضة الفكرية في العهد النوري، هو الإهتمام بدراسة الحديث الشريف، وإنشاء دور تخصّصيه لتدريسه، وكانت دار الحديث النورية بدمشق الأولى من نوعها في الإسلام، إنتقلت فكرتها فيما بعد الى الكثير من البلاد الأسلامية، وكان لها دور بارز في نشر المذهب السني.

4. هوامش البحث والمصادر والمراجع

1- يعُتقد أن أصلها لفظة أرامية، ومعناها الأرض المزهرة ،وقيل كذلك سميُت بدمشق لأن أهلها دمشقوا في بنائها، أي أسرعوا، ويعتقد أن ارم ذات العماد التي وردت في القرآن الكريم هي دمشق بعينها، ووصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون بانها من أجل بلاد الشام، وأحسنها مكاناً ،واعدلها هواءاً،يطل عليها من الشمال جبل قاسيون، ومن الجنوب الجبل الأسود، وجبل المانع ، ومن الغرب جبل الشيخ، وغربها مفتوح، وكذلك شرقها.للمزيد ينظر: الادريسي، محمد بن ادريس(ت: 560هـ/1164م)، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، عالم الفكر ،بيروت، 1989، ص 368–369، الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (ت: 626هـ/1228م) ، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت، د/ت،جـ2/ 463.

2- ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ2/ 465.

3- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين(ت: 346هـ/957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق. كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005،جـ 4/169.

4- ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف(ت: 874هـ/ 1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة،د/ت، جـ4/ 54–56، للمزيد ينظر: محمد حسين سلامة محاسنة ، تاريخ

دمشق خلال العصر الفاطمي، اطروحة دكتوراه ،كلية الدراسات العليا، الجامعة الاردنية ، 1993، ص83–91.

5- ابن العديم، كمال الدين عمر بن احمد(ت:660هـ/1261م)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق. سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، 1998، جـ1/ 282.

6- للمزيد ينظر:علي محمد علي الغامدي، بلاد الشام قبل الغزو الصليبي 463–491هـ/ 1070–1098م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة ام القرى، 1982، ص 298–309 .

7- ينتمي عماد الدين زنكي الى قبائل (الساب يو) التركمانية، حظي والده آق سنقر برعاية السلطان ملكشاه السلجوقي ،ومن أصحابه المقربين، منحه لقب (قسيم الدولة)، وأشركه في ادارة شؤون مملكته. ابن الاثير،عزالدين محمد (ت:630هـ/ 1232م)، الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق. عبدالقادر احمد طليمات، القاهرة، 1963، ص 4، عمادالدين خليل، عمادالدين زنكي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982، ص 31.

8- ابن الاثير، الباهر في الدولة الاتابكية، ص 38، ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم الحموي(ت:697هـ/ 1297م ،مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق.جمال الدين الشيال، القاهرة، 1953،جـ1/ 39–40.

9- ابن القلانسي، ابو يعلى حمزة بن علي(ت:555هـ/ 1160م)، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، 1978، ص 228.

10- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 228، ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ1/ 85.

11- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 270، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ1/ 87– 88.

12- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ، ص 279–280، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ1/ 93.

13- ابن الاثير، الباهر في الدولة الاتابكية، ص 69 .

14- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص284–285، ابن الاثير ، الباهر ،ص 73–74.

15- قلعة جعبر:تقع على نهر الفرات بين بلس والرقة.ياقوت الحموي،معجم البلدان ، جـ2/ 142.

16- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 228، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ1/ 110.

17- ابن الاثير ،عزالدين علي بن محمد (ت: 630هـ/ 1232م)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983جـ11/ 122، ابن العديم، زبدة، جـ2/655 .

18- ابن الاثير، الباهر، ص 91 .

19- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص300، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ1/ 114.

20- ابن الاثير ، الباهر، ص 89– 99.

21- للمزيد عن تاريخ اتابكية دمشق ينظر: رعد يونس عباس، اتابكية دمشق والاوضاع السياسية في بلاد الشام 497–549هـ/ 1104–1154م، مجلة كلية التربية الاساسية ، مج (21)، ع(91)، س(2015).

22- ابن العديم، زبدة،جـ 2/ 304. ابن كثير، ابو الفداء اسماعيل بن عمر (ت: 774هـ/ 1372)،البداية والنهاية، ط2، ،مكتبة المعارف، بيروت، 1977، جـ 12/ 231.

23- ابو شامة، عبدالرحمن بن اسماعيل(ت:665هـ/ 1266م)، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق. محمد حلمي محمد، القاهرة، ،جـ 1،ق1/ 239،عماد الدين خليل، نور الدين محمود الرجل والتجربة، دار القلم ،بيروت، 1980، ص 26.

24- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 328، ابو شامة، الروضتين ،جـ 1/ 94– 95.

25- الباهر في الدولة الاتابكية، ص 106– 107.

26- سبط بن الجوزي، شمس الدين ابو مظفر يوسف(ت: 654هـ/ 1256م)، مراة الزمان في تاريخ الاعيان، مطبعة مجلس المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن، الهند ، 1951، ،جـ 8/ 290، عبدالمجيد ابو الفتوح بدوي، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الاسلامي ،ط2، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، 1988، ص 218.

27- ابن جبير، محمد بن احمد (ت: 614هـ/1217م)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1980، ص 183.

28- ابن الاثير، التاريخ الباهر، ص 167.

29- ابو شامة، الروضتين، جـ1/ 581– 583.

30- ابن واصل، مفرج، جـ 1/ 283.

31- ابن الاثير، الباهر، ص171– 173 ، عماد الدين خليل، نورالدين محمود، ص 36.

32- ابن الاثير، الباهر، ص173ابن واصل، مفرج،جـ1/ 283.

33- ابن الاثير، الباهر، ص164، ابو شامة، الروضتينن جـ 1/ 459.

34- ابن الاثير، التاريخ الباهر، ص165، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ، جـ8،ق1/ 313.

35- ابو شامة شامة ، الروضتين، جـ 1، ق33/1.

36- البنداري ،قوام الدين الفتح بن علي (ت: 643هـ/ 1245م)، سنا البرق الشامي، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الاصفهاني، تحقيق. رمضان ششن ،بيروت ،دار الكتاب الجديد، 1971، ص 55– 60.

37- ابن جبير، رحلة ابن جبير،ص 244.

38- ابن جبير، رحلة ،ص 245.

39- ابن جبير، رحلة ،ص 245–247.

40- كتاب الروضتين، جـ1،ق1/ 140.

41- البنداري، سنا البرق، ق1/ 144.

42- إنتشر نفوذهم بحلب في عهد الملك رضوان بن تتش السلجوقي (488– 507هـ/ 1095– 1113م) الذي أقام لهم دار دعوة بحلب مما ساعد على قوتهم وإشتداد شوكتهم في المنطقة. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، 302.

43- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص468، ابو شامة، الروضتين، جـ1، ق1/ 147.

44- ابن شداد، عزالدين محمد بن علي (ت: 684هـ/ 1285م)، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تحقيق. سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ، 1956، (قسم حلب)، ص 110.

45- ابن العديم، زبدة الحلب، جـ2/ 294.

46- ابن شداد، الاعلاق (قسم حلب)، ص 100.

47- ابن شداد، الاعلاق،(قسم حلب) ص 121.

48- ابن الاثير، الباهر،ص172، ابن واصل، مفرج الكروب الكروب، جـ1/ 284.

49- ياقوت الحموي،شهاب الدين ابو عبدالله(ت: 626هـ/1228م)، ارشاد الاريب على معرفة الاديب،ط2، القاهرة،د/ت، ،جـ78/13.

50- سبط بن الجوزي، مراة الزمان،جـ8، ق313/1.

51- ينظر المبحث الثالث .

52- ابن خلكان، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد(ت: 681هـ/ 1282م)، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق. احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972، جـ5/ 185.

53- البنداري، سنا البرق الشامي، ق1/ 107–108، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ 5/ 385.

54- ابن الاثير، الباهر، ص9، سبط بن الجوزي، مراة الزمان ،جـ8،ق1/ 204.

55- ابن شداد، الاعلاق، (قسم حلب)، ص 262، النعيمي،عبدالقادر محمد عمر (ت: 927هـ/ 1521م)،الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق. جعفر الحسني ،مطبعة الترقي، دمشق، 1948،جـ1/ 152.

56- سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، جـ8، ق1/ 204، أحمد أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، القاهرة، 1954، ص32.

57- ابن شداد، الاعلاق(قسم حلب)، ص 110–111، القرشي، محي الدين عبدالقادر بن محمد بن نصر الدين(ت: 775هـ/ 1373م)،الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، تحقيق. عبدالفتاح محمد الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاءوه، 1978، جـ2/ 560–562.

58- ابن شداد، الاعلاق، (قسم حلب) ، ص 100، ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ5/ 196.

59- ابن خلكان، وفيات الاعيان ،جـ3/ 53–57.

60- ابو شامة ، الروضتين،جـ1،ق1/ 34.

61- القرشي، الجواهر،جـ444/2.

62- القرشي، الجواهر، جـ 2/ 444.

63- القرشي، الجواهر،جـ3/ 357.

64- القرشي، الجواهر،جـ26/4.

65- ابراهيم بن محمد الحمد المزيني، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ط1، الرياض، 2003، ص 260.

66- ابن الاثير، الباهر، ص 83.

67- عبدالمجيد ابو الفتوح بدوي، التاريخ السياسي ، ص 205–206.

68- ابن كثير، جـ12/ 279.

69- ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ4/ 272، ابن كثير، البداية والنهاية،جـ12/ 278.

70- ابن الاثير،الباهر، ص 186،ابو شامة، الروضتين، جـ1،ق1/ 33 .

71- ابن الاثير، الباهر، ص173.

72- ابن الاثير، الباهر، ص 172– 173.عماد الدين خليل، نورالدين محمود ، ص 25.

73- ابن الاثير، الباهر، ص 172– 173.

74- ابن الاثير، الباهر، 166، ابو شامة ، الروضتين،جـ 1، 1/ 36–37.

75- عبدالستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت، 1988، ص316.

76- حسين أمين، المسجد وأثره في تطور التعليم، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، ع(5)، س(1981)، ص9.

77- المقريزي، تقي الدين احمد بن علي(ت: 843هـ/ 1441م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،د/ت،جـ2/ 363.

78- المقريزي، المواعظ والاعتبار ، جـ371/2.

79- المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ3/ 328.، المزيني، الحياة العلمية، ص 127.

80- النعيمي، تاريخ المدارس، ص 169.

81- القلقشدي، أحمد بن علي(ت: 821هـ/ 1418م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ،القاهرة، 1963،جـ5/ 464.

82- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ5/ 464.

83- الأدفوي، جعفر بن ثعلب (ت:748هـ1347م)، الطالع السعيد ،الجامع لأسماء الفضلاء والرواة باعلى الصعيد، القاهرة، 1914. ، ص88.

84- السيوطي،عبدالرحمن بن بكر(ت: 911هـ/ 1505م)،حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، القاهرة، 1321هـ، جـ2/ 107.

85- النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ،جـ1/ 119.

86- زكي محمد حسن، فنون الإسلام ، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص 68.

87- ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ2/ 88، النعيمي، الدارس، جـ1/ 99–100 .

88- المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2جـ/341" هاينز هالم، الفاطميون، وتقاليدهم في التعليم، ترجمة. سيف الدين القصير، دار المدى، دمشق، 1999،ص115.

89- عبدالعظيم رمضان، تاريخ المدارس في مصر الاسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992، ص94.

90- ابن جبير، رحلة، ،ص51.

91- عبدالعظيم رمضان، تاريخ المدارس، ص94.

92- البنداري، سنا البرق الشامي البرق، ص 144.

93- ناجي معروف، علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، مطبعة الارشاد، بغداد، 1973، ص222.

94- ناظم رشيد،"التعليم في ظل الدولتين الزنكية والأيوبية"، مجلة آداب الرافدين جامعة الموصل، ع(10)، 1979، ص275.

95- ابن جماعة، بدر الدين محمد بن ابراهيم (ت: 733هـ/ 1332م)، تذكرة السامع والمتكلم في ادب العالم والمتعلم ،تحقيق. محمد هاشم الندوي، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر اباد الكن ، الهند، 1454هـ، ص150.

96- المدرسة القصاعية:وتقع بحارة القصاعين، أنشاتها فاطمة خاتون بنت الامير كوكجا سنة 593هـ/ 1196م، وجعلتها وقفاً على الفقهاء الحنفية حصراً.للمزيد ينظر:النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس،جـ1/434–439.

97- النعيمي، الدارس ،جـ1/ 565، ناصر محمد علي الحازمي، الحياة العلمية في دمشق في العصر الايوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة ام القرى، 1421هـ، ص 256.

98- قطب الدين موسى بن محمد (ت: 736هـ/ 1325م)، ذيل مراة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، جيدر اباد الدكن، الهند، 1954م،جـ1/ 70–71، النعيمي، الدارس، جـ1/ 279.

99- ابو شامة ، شهاب الدين محمد عبدالرحمن بن اسماعيل(ت: 665هـ/ 1266م)، الذيل على الروضتين ، تراجم القرنين السادس والسابع الهجريين ،تحقيق. محمد زاهد الكوثي، دار الجيل، ط2، بيروت،1974،، ص 137.، 209.

100- النعيمي، الدارس، جـ1/ ص52.

101- السيوطي، عبدالرحمن بن ابي بكر(ت: 911هـ/1505م)، بغية الوعاة، مطبعة السعادة، القاهرة، 1326هـ، ص219.

102- النعيمي، الدارس، جـ 1/ 103.

103- محمد كرد علي، خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق، 1925، جـ4/ 39.

104- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 10، ، 22 ، أبو شامة، ذيل الروضتين، ص 149، 188، 203.

105- ابن كثير، البداية والنهاية، جـ7/ 209.

106- ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ4/ 184.

107- الحنبلي، احمد بن ابراهيم(ت: 876هـ/ 1471م)، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، تحقيق. ناظم رشيد، بغدد، 1978، ص 276.

108- الحنبلي، شفاء القلوب، ص 276– 277.

109- ابن خلكان، وفيات الاعيان ،جـ 1/ 78– 79 ،القرشي،الجواهر المضيئة، جـ1/ 93.

110- ابو شامة، ذيل، ص 148.

111- ابو شامة، الذيل، ص90.

112- ابو شامة، الذيل ،ص 186، الذهبي، العبر في خبر من غبر، بيروت، 1980، جـ، 3/ 344.

113- ابو شامة، الذيل، ص 186، الذهبي، العبر، 3/ 244.

114- الذهبي،شمس الدين محمد احمد بن عثمان (ت: 748هـ/ 1348م)، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق. عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987، ص 454.

115- المزيني، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص 210– 211.

116- ابن شداد، الاعلاق، ص 199، 201، النعيمي، تلدارس، جـ1/ 12، 150، 153، 158، 216، 253.

117- النعيمي، عبدالقادر بن محمد(ت: 978هـ/ 1570م)، دور القران في دمشق، ط3، بيروت، 1982، ص8.

118- ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص199– 200، النعيمي، الدارس، جـ 1/ 537.

119- ابو شامة، ذيل الروضتين، ص198 .

120- المزيني، الحياة العلمية، ص 423.

121- المنذري، زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي(ت: 656هـ/ 1258م) التكملة لوفيات النقلة، تحقيق. بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ،ط4، 1988، جـ2/ 408– 409،القرشي، الجواهر ،جـ2/ 543– 544.

122- الذهبي، العبر ، جـ3/ 43–44.

123- الذهبي، العبر، جـ3/ 52، القرشي، الجواهر المضيئة ،جـ3/ 89– 92.

124- القرشي، الجواهر المضيئة ،جـ3/ 348– 349.

125- الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك(ت: 764هـ/ 1363م)،الوافي بالوفيات، نشر واعتناء. وداد القاضي، فسبادن ، 1982، جـ16/ 425، ابن شداد، الاعلاق،(قسم دمشق)، ص 201.

126- النعيمي، الدارس،جـ1/ 539.

127- ابن شداد، الاعلاق(قسم دمشق)، ص 201. ،الذهبي، العبر، جـ3/ 6، النعيمي، الدارس، جـ1/ 539.

128- الذهبي، العبر، جـ3/ 52، الصفدي، الوافي، جـ2/ 203.

129- ابن القلانسي، تاريخ دمشق، 1983. ص 475– 476، النعيمي، الدارس، جـ1/ 588.

130- النعيمي، الدارس،جـ1/588.

131- الصفدي، الوافي ،جـ2/ 203 ، النعيمي، الدارس، جـ2/ 203.

132- ابن العماد الحنبلي، ابو الفلاح عبدالحي (ت: 1089هـ/ 1678م)، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، دار الفكر ، بيروت، 1399هـ،،جـ4/212.

133- ابن شداد، الاعلاق، (قسم دمشق)، ص 218– 219، النعيمي، الدارس، جـ1/ 502– 503.

134- ابن شداد، الاعلاق الخطيرة (قسم دمشق)، ص 218. النعيمي، الدارس، جـ1/ 502–503.

135- الذهبي، العبر، جـ 3/ 27. الصفدي، الوافي،جـ 14/ 213.

136- الصفدي، الوافي،جـ 14/ 213– 214.

137- البدري، أبي البقاء عبدالله (من علماء القرن 9هـ/16م/)، نزهة الانام في محاسن الشام،بيروت ، 1980، ص 44– 45.

138- القرشي، الجواهر المضيئة، جـ3/ 357– 358.

139- النعيمي، الدارس، جـ1/ 504، القرشي، الجواهر المضيئة ، جـ3/ 218.

140- النعيمي، الدارس، جـ1/ 481، ناصر محمد علي الحازمي، الحياة العلمية ، ص 293.

141- النعيمي، الدارس، 1جـ/ 482.

142- محمد كرد علي، خطط الشام ، ج6/ 92، بدوي، الحياة العقلية، ص 39.

143- ابو شامة، الروضتين، جـ1/ 583. ابن شداد، الاعلاق، (قسم دمشق)،ص203.

144- ابن شداد، الاعلاق، ص 203.

145- المزيني، الحياة العلمية ، ص 430.

146- ابو شامة، الروضتين ،جـ 1/ 309، النعيمي، الدارس ، ص 52.

147- سبط بن الجوزي، مراة الزمان ، جـ8/ 474، 604، 605)، ابن كثير ،البداية والنهاية، جـ7/ 92.

148- النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، جـ1/ 359.

149- النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، جـ1/359.

150- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 256. علي محمد الصلابي، القائد المجاهد نورالدين محمود زنكي، شخصيته وعصره، القاهرة، 2007، 70.

151- ابو شامة، الروضتين ،جـ1،ق1/ 583–584.

152- ابن شداد ، الاعلاق، ص 203.

153- الذهبي، العبر، جـ3/ 127، النعيمي، الدارس، جـ1/ 513.

154- ابن كثير ،البداية والنهاية،جـ12/ 330.

155- ابن شداد، الاعلاق،ص 222، النعيمي، الدارس، جـ1/ 527 .

156- ابن شداد، الاعلاق، ص 225.

157- النعيمي، الدارس، جـ1/ 477.

158- القرشي، الجواهر ،جـ 4/ 383.

159- ابن شداد، الاعلاق، ص 225.

160- ابن كثير، البداية ، جـ13/ 207، النعيمي، الدارس، جـ/ 478.

161- ابن شداد، الاعلاق، (قسم دمشق)، 262، النعيمي، الدارس، جـ1/ 152.

162- النعيمي، الدارس، جـ1/ 152.

163- عن سيرته ينظر:المنذري، التكملة ، جـ1/ 108– 109، القرشي، الجواهر، جـ2/ 332، النعيمي، الدارس، جـ1/ 473.

164- النعيمي، الدارس، جـ1/ 473.

165- ابن شداد، الاعلاق،(قسم دمشق) ، ص262.

قوتابخانێن حەنفی لـ دمشقیٚ سەردەکیٚ سولتان نورالدین محمود زنکی
(549-569 مش/1154–1173ز)

پوختە:

بازێریٚ دمشقیٚ ناڤو دەنگیەکا مەزن لسەدەیٚ 6مش/ 12ز پیداکربوو نەمازە سەردەمیٚ سولتان نورالدین محمود زنکی(549–569مش/ 1154–1173ز)کو گرنگیەکا مەزن دا ڤیٚ چەندیٚ، وئو بازێریٚ دمشق ببو ناڤەندا دەستهەلاداریێ وئو ستراتیجیەکا گرنگ دژی خاچ هەلگران، وئو ببو خالەکا پێکڤە گرێدانیٚ د ناڤبەرا بەغدا وقاهیرە، هەروەسا ببو ناڤەندەکا سیاسی وسەربازی بو ئێکگرتنا هێزێن ئیسلامی بو ئازادکرنا بازێریٚ قودسا بیروز ژ دەستیٚ خاچ هەلگران. ژ لایەکیٚ دیڤە سولتان نورالدین محمود زنکی هەولدا بروژێ خو یێ سیاسی بسەربێخیت برێکا هێزکرنا بارودوخیٚ ناڤخوییٚ یێ موسلمانا د چارچوڤیٚ پشتەڤانییا زانایێن موسلمانیێن سوننە دا کو پشێت بەرامبەر مەزهبێن دی ییٚن بینە ئەگەریٚ لاوازبوونا موسلمانا کو ژێك چودا کرین ژبەر ڤیٚ چەندیٚ گرنگیەکا تایبەت بـ زانستێن ئاینی دا. وبازێریٚ دمشقیٚ ل ڤی سەردەمی ببو ناڤەندا گەشەکرنا هزری وئاینی . وزانایێن موسلمان ییٚن سونە ، هەروەسا هەژمارەکا قوتابخانێن سونی ومەزهبێن جودا جودا ڤەکرن. وئەڤ ڤەکولینە بزاڤێدکەتن کو رولیٚ سولتان نورالدین محمود د ڤی چارچوڤیدا دیاربکەت، نەمازە قوتابخانێن حەنفی کو لـ دمشقی هاتینە ئاڤاکرن ژبەر کو سولتان محمود بخوژی باوەری بڤی مەزهبی هەبوو وئەڤ ڤەکولینە دابەشدبیت لسەر (سیٚ) تەورا. تەوریٚ ئێکیٚ / شروڤەکرنەکا کورت ددەتە سەر بارودوخیٚ سیاسی سەردەمیٚ سولتان نورالدین محمود . وئو تەوریٚ دوویٚ / شروڤەکرنە کیٚ ددەتە سەر پشتەڤانیا سولتان نورالدین بو ساخکرن وهێزکرنا مەزهبیێن سونی بگشتی ومەزهبیٚ حەنفی بتایبەتی، وئو تەوریٚ سیٚ / بەحسیٚ قوتابخانیێن مەزهبیٚ حەنفی ل بازێریٚ دمشقیٚ دکەت وهەروەسا شروڤەکرنا پروگرامێن خواندنیٚ وئو زانایێن وانی لیٚ گوتین.

پەیڤێن سەرەکی: قوتابخانێن حەنفی، نورالدین محمود، زنکی.

The School of Al-Hanafiyia in Damascus during the ring of Sultan Noradin Mahmud son of Zanke
(549- 569 HC / 1154 – 1173AD)

Abstract:

In the 6 HC/ 12 AD century, the city of Damascus was becoming so well-known especially during the reign of Sultan Nur al-Din Mahmud bin Zangi (549- 569 HC /1154 - 1173 AD), who took care of it greatly, what is more, it was a center of administration in the light of its geostrategic position of holy war against the crusaders, it should be putting out that it was certainly a connection bridge between Baghdad and Cairo, it was capable of political and military for uniting the Islamic groups and frontlines, it had played a crucial role of liberating Jerusalem from the crusaders .On other hand, Sultan Noureddine Mahmud, concentrated mostly on getting succeeded of his political necessity agendas to establish and strength the internal front of the Muslim world during his backing of the Sunni scholars to take over the schools, which had weakened Muslims and distinguishing them. Hence, his first preponderance and strengthening were contemplating on the religious sciences in his kingdom, during his era, Damascus was a center of developing intellectual and ideological, many Sunni scholars stayed in, furthermore, constructed a number of different Sunni school denominations.This study attempts to demonstrate the efforts of Sultan Noureddine Mahmud in this regard during his concentration on constructing Sunni schools in Damascus, specifically his contemplation on Hanafi school, as he believed in this kind of schools, respectively. This article is divided into three sections: First section endeavours to show general condition of Damascus during the period of Sultan Noradin Mahmud. Second section allocates to illustrate Sulatan's supports to Sunni schools in general as well as Hanafi school in particular. Third section is being allocated to clarify the approaches of school of Hanafi in Damascus that it got, it programmer and those scholars who taught at this school.

Keywords: Hanafi schools, Nour al-Din Mahmoud, Al Zanki era.